

رسالة الجاحظ

في مناقب الترك وهام: منبر اليهود:

للأستاذ محمود عزت عرفه



الجاحظ أمة في الأدب وحده ، وعالم محقق لا يسر له غور أو يدرك لاتساع فطنته مدى . وهو إلى جانب موسوعاته التي كشفت عن غزارة ذهنه ورحابة عقله ، قد ترك لنا مجموعة رسائل يمكن أن نعدّها في باب الموجزات بالقياس إلى تصانيفه التي يطول فيها استطراده وتتسع منادح تفكيره

ولكن إنجازها في هذه الرسائل غير مقصر بها ولا مخلّ ؛ إذ تعالج كل منها موضوعاً قائماً بنفسه في إحاطة لا ترك وراهها فراغاً أو تقصصاً ، واستيعاب لا يقادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ومن هذه الرسائل رسالة عنوانها : في مناقب الترك وعامة جند الخلافة^(١)

وإنها آية من آيات الجاحظ ؛ تقفنا من تفكيره على صورة جميلة ، وترسم لنا خطوطاً واضحة المعالم لبعض وجوه تصرفه في الكتابة والتصنيف .

وهو يبدو في هذه الرسالة عظيم الاحتفاء بشئون السياسة على عهده ، قوى الساهمة ، بقلمه وبذهنه ، في خدمة قضية يراها جديرة بأن يعمل لها ويسمى في سبيلها .

وقد بحث الجاحظ بهذه الرسالة إلى الفتح بن خاقان صاحب التوكل ونديمه المصطفى في حياته ، والذي قامه مصرعه الرهيب فيما بعد على يد المنتصر ابنه . وولى عهده ...

على أن الرسالة لم تكتب في ذلك العهد ، وإنما كتبت أيام المتعمم ثامن خلفاء بني العباس ؛ ولم تهباً للجاحظ أن يُسلفها إليه فبقيت حبيسة طيلة عهده ، ثم مدة الواثق من بعده ، حتى تهباً لها الظهور أخيراً في أيام التوكل . والجاحظ نفسه يشير إلى هذه الحقيقة كما سنرى ذلك فيما بعد . ولكن الذي بعيننا الآن هو التحقق من بواعث تحرير هذه الرسالة ، ثم النظر في أسباب

(١) يسميها ياقوت : كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك أندر ترجمة الجاحظ ج ١٦ ص ١٠٧ من معجم الأدباء

احتباسها طيلة هذه الفترة حتى ظهرت في عهد التوكل . وما من ريب في أنه كان للعوامل السياسية أثر قوى في كل هذا فما الذي دفع الجاحظ أولاً إلى كتابة هذه الرسالة ؟

لقد تولى المتعمم الخلافة بمد أخيه المأمون ، وكان مثله ممن يقدر النبوغ ويحتفل بالمواهب حينما ظهرت ، فانفسح مجال التفوق في دولته أمام العناصر غير العربية . على أن نزعة المأمون كانت علمية كما هو معروف ؛ أما المتعمم فكان شجاعاً باسلاً رب سيف ورمح ، لا قلم ولا كتاب . كان «الحليفة الأمي» كما وصف نفسه في كثير من الصدق ، ولكنه تفرّد إلى جانب ذلك بصفات سامية في البأس والشجاعة ؛ فكان فارس بني العباس الملم ، وأضرب رجال دولتهم في البطولة بسهم

ولقد استكثر من غلمان الأتراك في جيشه ليتقوى بهم على الخراسانية الذين نهضت على أكتافهم دولة المأمون ، واستقدم كثيراً من أبناء فرغانة وأخرسنة ليستعز بآسهم على من كانت تموج بهم بغداد من مختلف طوائف الجند بين عرب وأبناء^(١) وموال وخرسانيين

وما نشك في أن الجاحظ كتب رسالته على هذا العهد متشيماً بذلك للخليفة وحزبه . ولقد كان الجاحظ أديباً موهوباً محظوظاً ، وقل في الأدباء من يجمع بين هاتين البصفتين . كان يجب أن يستفيد ، ثم هو يعرف كيف يستفيد ؛ ولكن تطور الأمور ألبأه — برغمه — إلى أن يجبس رسالته حتى حين ، إذ كان التنافس قد اشتد وقتئذ بين هذه الطوائف المختلفة في أجناسها وجبيلاتها ، المتباينة في أطعما وفي أهوائها . وتطورت الحال إلى أكثر من هذا ؛ إلى اصطدام دموي عنيف ، وفتنة هوجاء جامحة ، حيكت فيها الدسائس الخفية والظاهرة ، ودرت الاغتيالات المحققة والمبطلّة ، فطاحت رؤوس ، وأهدرت دماء ، وهاجت أوشاب من العامة بإيماز من رؤوس الأجناد ، واثمرت الطوائف جميعاً بالأتراك الذين خصهم الخليفة بإيثاره ، وبوأهم رفيع المناصب في دواوين حكومته وثكنات عسكره

(١) الأبناء قوم من العجم كانوا يسكنون بلاد اليمن ، ويرجع أول عهدهم بها إلى عام ٥٧٦ م حين استنجد سيف بن ذي يزن الحميري بكسرى أوشروان ضد غزاة بلاده من الجيش ، فأرسل معه د وهرز ، على رأس جيش احتل به صنعاء وطرده الأقباش . وقد بقيت للفرس السيطرة على هذه البلاد حتى ظهر الاسلام واعتقته أهلها عام ٦٣٢ م (١٠ هـ)

العباس بن المأمون حتى أطعمه في قتل عمه . ودخل معه في ذلك جماعة ممن انطوت نفوسهم على الكيد للمعتصم وتربص الشر به . ولكن الخليفة اطلع على سر هذا التدبير ، فقتل عجيفا ومن ماله ؛ وحبس العباس ابن أخيه حتى مات من وطأة الضر وفرط الأذى ...

٣ - ومن تدابير الكيد في ذلك العهد ما أوغر به القوم صدر المعتصم على خالد بن يزيد الشيباني أحد ولاته من العرب حتى أزاله عن ولايته وطالبه بأموال جسيمة ؛ فلم يجد من يشهزهم في هذه المحنة إلا أحمد بن أبي دؤاد^(١) الذي شفع له عند المعتصم حتى عفا عنه ، وخلع عليه وأعفاه مما كان قد أسره به من الخروج منتفياً إلى الحجاز .

وفي هذا يقول أبو تمام أيضاً من قصيدة يمدح بها خالداً ربهنته :
سيل طمى لو لم يذده ذائده لتبطحت أولاه بالبطحاء
وغدت بطون سنى هنى من سنبه
وغدت حيراً منه ظهور حيراء
وتعرفت عرفات زاخره ولم يخصص كداه منه بالإكدهاء
ولطاب مرابيع بطيبة واكتست

بردين : برد توى وبرد ثراء
لا يجرم الحرمان خيراً إنهم حرموا به نوءاً من الأنواء...
تعد هذه الحوادث وغيرها كثير من عوامل نشوب الفتنة التي أشرنا إليها آنفاً ؛ لأن هذا التحرش بين الترك من ناحية ، والعرب والخراسانيين وسائر الموثورين من ناحية أخرى ، لم يلبث أن تحول إلى اصطدام عنيف تكررت فيه حوادث المدوان في طرقات بغداد ، واضطرب معه جبل الأمن في أرجائها ؛ حتى لم يجد الخليفة بدءاً من أن ينهض يمينه المختار إلى عاصمته الجديدة سر من رأى ، ليحجم بذلك وجه النزاع ويهدئ من سورات النفوس ... ففي مثل هذه الظروف لم يكن يتيسر للجناح

وينبئ هنا أن نشير إلى بعض الوقائع الثابتة لتمثل الحالة التي سادت البلاد في ذلك العهد تمثيلاً أقرب إلى الوضوح .

١ - كان الأفشين^(١) من أشهر قواد المعتصم الأتراك ، وقد أبلى البلاء الأعظم في الحروب التي اشترك فيها دفاعاً عن حوزة الخلافة ، وبسطاً لسلطان الدولة في عصرى المأمون والمعتصم . ولكنه لم يكن مع ذلك خالي النفس من كراهية العرب ، والتسخط على منافسيه من أفرادهم وأعيانهم . ولقد كان حسده للقائد العربي أبي دؤلف (القاسم بن عيسى المجلى) أمراً مشهوراً ؛ حتى لا شهد عليه مرة بجنابة وقتل ، وأزمع أن يقتص منه ، لولا أن بادر أحمد بن أبي دؤاد^(٢) كاتب المعتصم ومشيره فأدركه قبل نفوذ الأمر فيه ؛ وأندر الأفشين أن بصييه بسوء ، ثم رفع القصة إلى الخليفة ، فاستحسن سنيمة في المبادرة بإتقاذ أبي دؤلف ، وعنف الأفشين على ما كان قد وطد الغزم عليه ... ولم يلبث هذا القائد - وهو من هو ضراوة وسوء معتقد - أن حاول الاستقلال بحسقط رأسه أشروسنة ، فانكشف أمره على يد عبد الله بن طاهر الأمير العربي في خراسان وكان في ذلك مهلكة ونهاية شأنه . ونذكر هنا بعض ما قاله أبو تمام من قصيدة يسجل فيها حادث إحراق الأفشين وصلبه :
ما كان لولا قبج عذرة (حيندر) ليكون في الإسلام عام (بجار)
ما زال ير الكافرين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارزى
ناراً يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شق إزار
مشبوبة رُفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساوى
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ، ويدخلها مع الفجار
٢ - كان عجيف بن عنبسة من قواد الأتراك الناقمين على المعتصم بمض تصرفه - ورضى الناس جميعاً غاية لا تدرك - وكان قد صحبه في حصار عمورية (عام ٢٢٣ هـ) . وهناك أوغر صدر

(١) هو حيدر بن كاس من أبناء ملوك أشروسنة ، والأفشين لقب لهم . أما أشروسنة فهي كورة فيما وراء النهر ، بين فرغانة وسمرقند
(٢) في كتاب « إلهام الأعلام » للرحوم محمود مصطفي : « يقول ابن خلكان دؤاد بضم الدال وفتح الواو . وفي القاموس المحيط في مادة « دود » وأحمد بن دؤاد معروف . ومن هذا يظهر لك خطأ من يهز الواو ، وقد وقع في ذلك كثير » ٥١ .

(١) يقول الرحوم الحضري بك في محاضراته : كان في ابن أبي دؤاد عصبية عربية ، ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل التوة كلها للامان الأتراك ، الذين استكبر منهم ومن قوادهم ...